من أجل بحث آثاري في المخاطر
pour une archéologie du risque

١- التبصّر في المخاطر
1. Penser le risque

يمكن أن نقرأ في مقالة كتبها روري ف. كنيث Rory F. Knighth وديبوراه ج. بريتي Deborah J. Pretty بعنوان: "تحديد فلسفة للخطر"، نشرت في الصحيفة الفرنسية اليومية ليزيكو Les Echos، في (٥ سبتمبر "أيلول" ٢٠٠٥م)، الملاحظة التقديمية التالية التي تحتفظ بكل اتساقها في الوقت الراهن:

اكتسبت المخاطر سمعة سيئة في الآونة الأخيرة. فالمآسي الإنسانية التي هي حادث مدينة بهوبال[١] Bhopal وحادث "بيبر ألفا"[٢] Piper Alpha"، وانهيار صندوق المضاربة[٣] لمجموعة LTCM، والحوادث المؤسفة التي وقعت في بنك

(١) كارثة حصلت في الثالث من ديسمبر "كانون الأول" ١٩٨٤م، عندما انفجر مصنع كيميائي تابع لشركة أونيون كاربيد، وقتل أربعة آلاف شخص، وستة آلاف شخص بعد ذلك؛ ثلاثمائة منهم في اليوم الأول. [المترجم]

(٢) الاسم السابق لمنصة بترول تقع في بحر الشمال قرب بئر بيبر (على شواطئ اسكتلندا). دمرها انفجار نشب بعده حريق تسبب بمقتل ١٦٧ شخصاً، وخسارة مالية قاربت ٣,٥ مليار دولار في ذلك العصر. [المترجم]

(٣) انهيار المجموعة الأمريكية: لونغ ترم كابيتال ماناجمانت (إدارة رأس المال على المدى البعيد)، في عام ١٩٩٨م. [المترجم]

بارينغس[٤] Barings، والمخاطر الخفية التي تسبب بها الأميانت[٥] amiante، والدخان، والتدهور البيئي، وسحب شركتيْ بيرييه *Perrier* للمياه وكوكاكولا منتجاتهما، هي بعض التمثيلات السلبية التي أثارت اشمئزاز المسؤولين من المخاطر. والخبر السيئ، هو أن... المخاطر لا يمكن بطبيعتها أن يكون عرضة للإزالة تماماً. والخبر الجيد، هو أن مديري الشركة ليسوا مكلفين بإزالة المخاطر. بل هم على العكس يتقاضون أجورهم لكي يركبوا المخاطر.

ثم خصص المؤلفان بعد هذه الفقرة مقالهما للبرهنة على أن الميزات في مجال ابتداع القيمة في إدارة المخاطر الذي يقسمونه بالتالي قسمة دالة إلى مخاطر إستراتيجية، ومخاطر السوق، ومخاطر الكوارث، ومخاطر الاستغلال، في مواجهة ما يسميانه "طرق الإدارة التقليدية القائمة على الاشمئزاز من المخاطر". ولعلنا لاحظنا في هذه المقاربة ما تجري إدانته في بعض الأحيان تحت اسم "الطوباوية الاجتماعية الجديدة" التي تستند إلى تقديم المخاطر بوصفها "قيمة القيم"، ويصدر عن القناعة التي تقول إن "مجتمع المخاطر" قائم على "إنكار المسؤولية في مواجهة المخاطر"، ينكرها أشخاص يتمتعون بالحماية في وجه خطر الآخرين: حينئذٍ ستكون المخاطر في هذا السياق الداعم الإيديولوجي للتفكك الاجتماعي.

إذنْ، إن مصطلح المخاطر يسبب قدراً كبيراً من سوء الفهم، حتى لو كان من المقبول عموماً أننا "أصبحنا في مجتمع المخاطر"، لكي نعيد استخدام عبارة وردت في كتاب عالم الاجتماع أولريش بيك[٦] Ulrich Beck، الذي ظهر إبان كارثة تشرنوبيل.

---

(٤) من أقدم البنوك البريطانية اختفى عام ١٩٩٥م بعد وجود استمر ٢٥٠ سنة بسبب التنظيف المكشوف المفرط لموجودات البنك. [المترجم]

(٥) مادة طبيعية تستخدم أليافها في صناعة عوازل لا تحترق. وهو مادة سامة تسبب أمراضاً سرطانية. [المترجم]

(٦) عالم اجتماع ألماني، ولد عام ١٩٤٤م، أستاذ في جامعة ميونيخ، وفي مدرسة الاقتصاديات في لندن. والمقصود كتابه الصادر عام ١٩٩٢م بعنوان: مجتمع الخطر: نحو الحداثة الجديدة.

Beck, Ulrich (1992) Risk Society: Towards a New Modernity. London: Sage [المترجم]

لكي نتبصر المخاطر، كما هو الحال في التبصر بالتاريخ، لا يكفي أن نعرف كيف هي الأشياء في الوقت الراهن، ولكن كيف أصبحت تلك الأشياء على ما هي عليه. لذلك فإن الحكايات المؤسسة، الأساطير التي مكنت البشرية من التبصر في ذاتها، والتي رسمت سبلاً للتبصر، تشكل تلك "الفرجة بين الماضي والمستقبل"، التي تسمح بكل ممارسة للتبصّر مرتبطة "بأحداث الحياة المعيشة، كما ترتبط بالأدلاء الوحيدين المخصصين لتوجيهها"، كما تقول الفيلسوفة حنة أرنت[٧]، وسنلجأ إليهم هنا أيضاً لكي نتبصر. [١١٨]

٢– عند جذور التاريخ البشري

2. Al'origine de l'histoire humaine

إن لمصطلح المخاطر أصلين اشتقاقيين، فهو مشتق من جهة من الكلمة اللاتينية resecare، التي تعني "قطع"، "فصل بوضوح": ويفعل هذا الأصل نجد أن كلمة riesgo الإسبانية تشير إلى "الصخرة المقطعة"، وتعني من جهة أخرى "الرصيف الصخري"، وهو مشتق من الكلمة الإغريقية rhiza التي تعني "الجذر"، ولكنها تعني أيضاً "الأساس" و"الأصل"، والمصطلح له في الإغريقية معنى "المخاطر". إن هذا الاشتقاق المزدوج يحيل بوضوح إلى بداية تاريخ البشرية حسب التوراة، ففي سفر التكوين، في اليوم السادس للخلق خلق الله الإنسان على صورته وشبهه، مخاطراً أن يسعى الرجل والمرأة إلى التماهي معه[٨]. والواقع أن الرجل والمرأة عندما استمعا إلى كلام الحية وأكلا من الثمرة التي حرمها الله عليهما فإنهما اختارا أن يصبحا "كالآلهة". لقد ركبا المخاطر الكبيرة، التي كانا حينئذٍ عاجزين عن تقدير تبعاتها، وهي مخاطر مضاعفة: لزوم أن

---

(٧) حنة أرنت، أزمة الثقافة، تقديم، باريس، منشورات غاليما، سلسلة "فوليو محاولات"، ١٩٧٢م، ص٢٥ – ٢٦.

Hannah Arendt, La crise de la culture, préface, Paris, Ed. Gallimard, collection "Folio essays", 1962, p. 25 - 26.

(٨) الترجمة الجامعة للتوراة، منشورات سيرف، ١٩٨٠م.

يموتا كما هدهما بذلك الخالق، امتلاك معرفة الشعور بالسعادة والأسى كما أخبرتهما بذلك الحية. وإن هذا يعني بدقة كبيرة أنهما اختارا خطراً عظيماً تمثل في بداية التاريخ. لقد طردا من جنة تمثل السكينة والأمن. وبالتالي كان لفعلهما نتائج تتجاوز بمسافة كبيرة غايتهما، وكان من هذه النتائج حسب التوراة امتلاكهما المسؤولية. إن ما سيوصف بأنه "السقوط" الكارثي هو أصل التاريخ البشري، ذلك التاريخ الذي هو، حسب التوراة على الدوام، منسوج من المخاوف والمواجهات، ذو إيقاع يتناسب مع التدخلات وأشكال الوحي السماوي، ومع النكبات طبيعية كانت أم بشرية. لقد أصبح المستقبل مجهولاً. وهذا ما يعبر عنه في عصرنا الفيلسوف التشيكي جان باتوكا[٩] Jan Patočka بقوله: "الصيرورة مشكلة وستكون كذلك على الدوام".

٣- المخاطر، "حاجة جوهرية للروح"

3. Le risque, un "besoin essential de l' âme"

إن الفيلسوفة سيمون ڤيّ في كتابها الذي يحمل عنواناً دالاً كل الدلالة: التأصُّل[١٠] فصلت القول فيه بما يمكن أن نعده فلسفة للمخاطر. عالجت في الباب الأول من الكتاب "حاجات النفس"، وهو بحث صغير مخصص لبث الطمأنينة في نفس الفرد الذي يستطيع التنفس والعيش والتصرف في خضم المخاطر، عندما يتخلى عن الوقائية التي تحظر عليه الوصول إلى الواقع، إلى الحقيقة. هناك إلى جانب القوة أمر آخر غيرها، واقع يخصب الروح ويبث فيها زخماً لم يكن لديها شك أنه موجود فيها. إن للكائن البشري حاجات، حاجات النفس لا تبتدع لها حقوقاً، ولكن تفرض عليها التزامات، لأن تلك الحاجات الكامنة فيها هي صوت حقيقتها. إن المظهر الأبدي والمطلق لالتزامات كل فرد ليس مهماً

---

(٩) (١٩٠٧ – ١٩٧٧م)، واحد من أهم الفلاسفة التشيكيين في القرن العشرين، تأثر بهوسرل وهيدغر، ويهتم بالفلسفة الظوهراتية، وله أبحاث في أثر أفلاطون في الحضارة الأوروبية. (المترجم)

(١٠) L' Enracinement.

له في رأي سيمون فيّ إلا في ظروف استثنائية ؛ لا تكتشف الروح نفسها ولا تكتسب وجودها إلا إذا اكتوت بنار الحدث وبدا لها عارياً. ولهذا :

تكون المخاطر حاجة أساسية للنفس. وغيابها يثير نوعاً من الملل الذي يصيب بالشلل بطريقة تختلف عن طريقة الخوف، ولكنها تكاد تكون هي هي.

وتضيف سيمون فيّ :

وربما يكون التأصل هو الحاجة الأكثر أهمية والأكثر إهمالاً للنفس البشرية... يصبح للكائن البشري جذر عندما يشارك مشاركة واقعية وفاعلة وطبيعية في إيجاد جماعة تحافظ على بعض كنوز الماضي وبعض توجسات المستقبل حية.

[١١٩] يتضح أن هذا التأصل عبر المشاركة في وجود الجماعة مرتبط بالمخاطر التي ليس لها أي صفة من صفات المبدأ الأخلاقي، ولا سمة من سمات المورد الاقتصادي ؛ إنها تمرين فلسفي حقيقي، يتمثل في اكتشاف أن "الكائنات والأشياء موجودة"، وجوداً حراً ومستقلاً، بعيداً عن الوهم والكذب، بعيداً عن الزيف الأخلاقي. كلما ازدادت الحرية في الكون ازداد فيه النظام عبر التعرف والتمييز. إن الحرمان من الحرية هو الذي يدفع البشر إلى الانحراف عن الطريق القويمة وإلى القتل. يقول سقراط Socrate :

إنه لمن المستحيل أن يختفي الشر، لأن هناك على الدوام عكساً للخير. كما أنه من المستحيل بالقدر السابق نفسه أن يكون له مقعده بين الآلهة : وبالتالي إنه يتجول عبر الطبيعة الفانية وعبر هذا العالم هنا على الأرض.

والحال أن الأخلاق والاقتصاد والسياسة لا تهتم إلا بهذا العالم "هنا على الأرض"، العالم الذي يتحدد فيه مصير الأفراد والمجتمعات. وترى سيمون فيّ أن السياسة هي الفن الرئيس، في حين أن الأخلاق، مجربة كانت أو مكتشفة، تعالج على وجه الخصوص الضرورات. وإن ما يعتد به من أجل حدوث تشابك مؤثر بين المخاطر

والتأصل، هو اتخاذ الخيال سنداً. إن أعمالاً رئيسة مثل التوراة أو أنتيغون Antigone أو الإلياذة أو الأوديسة تهب معرفة لا زمنية، جديدة وحية على الدوام، إنها تدعو القارئ إلى المخاطرة بترميم الذاكرة. ربما يكون ذلك هو فن التحرك في تلك الفرجة بين الماضي والمستقبل، الفرجة التي تتحدث عنها حنة أرنت. وبذلك يتعرض الأفراد لمخاطر أقل في مواجهة التزامات لا يمكن التوفيق بينها، ولكنهم يستطيعون المخاطرة بالتعرف على الآخر، وبالتمتع بالاحترام الذي يربط بين المجتمعات، الذي هو شرط العيش المشترك. وتذكرنا حنة أرنت بأن كل جيل جديد، وكل إنسان جديد ينبغي أن يعيد، وإنْ بصعوبة، اكتشاف منشط التبصر، التبصر في قرننا هذا:

إن للسعي المبرأ من المصلحة إلى الحقيقة تاريخاً طويلاً... وأظن أنه بإمكاننا أن نرفعه إلى اللحظة التي اختار فيها هوميروس أن يتغنى بمآثر الطروادين غناء لا يقل في شيء عن تغنيه بمآثر الإغريق[١١].

يتجذر تاريخ البشرية في القتل والعنف. ففي التوراة يعد حدث مقتل هابيل، الراعي الذي قتله آخاه قابيل المزارع، أول حدث في تاريخ البشرية. أما قابيل الذي طرده الله من وجهه، ولعنته الأرض نفسها التي فتحت فاها لتقبل دم أخيه من يده، فإنه أصبح بعد جريمته هو وذريته مؤسس المدن ومعمرها. لقد أسهم، بعد أن منعته جريمته من زراعة الأرض، في توطين البشر في مساكن. إن صورة هابيل العنيف والمتوحش، معمر المدن، لتذكر بصورة الإله أبوللون Apollon. وآية ذلك أن إله الشمس أبوللون هو أيضاً في بلاد الإغريق القديمة الإله الذي يخفي سكيناً خلف قيثارته[١٢]. إنه بوصفه إله المدنية مسؤول عن بداية البشرية. إنه بذلك، وهو يشق

---

(١١) حنة أرنت، أزمة الثقافة، م. س، ص ٣٣٤ – ٣٣٥.

(١٢) قارن بمارسيل ديتيين، أبوللون، شاهراً سكينه، باريس، منشورات غاليمار، ١٩٩٨م.
Cf. Marcel Detienne, Apollon le couteau à la main, Paris, Éd. Gallimard, 1998.

الطريق بسكينه عبر الطبيعة المتوحشة، يبث الرعب في نفوس الآلهة أنفسهم، ويؤسس معبد دلفي Delphes ومدينة طروادة. إنه يرسم فضاء القانون، دون أن يفرض ألبتة إرادته على البشر. كان أبوللون، وهو يؤسس طروادة، يعلم أنها لن تبقى إلا زمناً قليلاً، ولكن المهم هو أن التأسيس قد حصل، وإن كان هناك خطر الحرب والخراب. إن أبوللون، المستبد، هو أيضاً إله القربان؛ إن له علاقة مستمرة مع العنف، ومع جرائم القتل؛ وقد يصل به الأمر في بعض الأحايين إلى يغري بارتكاب بعض الجرائم. وإن كل تأسيس لدى الإغريق القدماء معرض للتعرض لخطر العنف والجريمة[١٣].

٤– عوليس المبادر والمقياس الصحيح للخطر

4. L'entreprenant Ulysse et la bonne mesure du risque

إن عوليس Ulysse، البطل، والجريء والماكر، الذي يحميه الإله أبوللون، يبدو أنه واحد من أقدم خبراء الإنسانية في مجال المخاطر. لقد استحق، بهذه الميزة نفسها أن يصبح خالداً في أوديسة الشاعر المشهور هوميروس. إن الأوديسة التي ترسم الرحلة البحرية التي قام بها عوليس ومرافقوه عبر العالم الفسيح للعودة إلى وطنهم بعد الاستيلاء على طروادة، توضح أيضاً كيف أن الحياة البشرية حبيسة عاصفة أبدية من مظاهر التجديد والمخاطر. لقد كان عوليس بسبب كونه عرضة لحقد بعض القوى الإلهية، ولمساعدة بعضها الآخر معرضاً للحرمان من العودة إلى وطنه ألبتة؛ إنه من جانب آخر الوحيد من كل فريقه الذي عاد إلى وطنه. إن الاعتدال في ركوب المخاطر، والوقوف بعيداً عن أي طوباوية واثقة بالمستقبل، ولا تستسلم ألبتة للخوف – وبالتالي لا يسهم في صناعته – هو الشرط المناسب لتصرفات البطل.

---

(١٣) ويصح هذا لدى الشعوب اللاتينية أيضاً فأسطورة تأسيس مدينة روما قامت على العنف والقتل، في أسطورة روموس وروموليوس. [المترجم]

ففي النشيد الثاني عشر من الأوديسة يجد عوليس نفسه مع مرافقيه معرضين لوضعين، من يتعرض لهما فمصيره الهلاك المحتم، وهما وضعان مشهوران، كان ينبغي عليه بالضرورة مواجهتهما. يتمثل الأول في أنه كان ينبغي عليه أن يسير بمحاذاة جزيرة حوريات البحر اللواتي يجتذبن البشر بغنائهن الرائع الذي لا يقاوم ليبتلعنهم. أما عوليس، الحذر والفضولي في آن معاً، فإنه أمر بحارته جميعهم بأن يسدوا آذانهم بالشمع. وطلب منهم أن يقيدوه إلى صارية السفينة ومنعهم من أن يفكوا وثاقه مهما توسل إليهم ليفعلوا ذلك. ذلك هو إجراء الحماية والمقاومة ضد المخاطر القاتلة التي تخيلها. وهو إجراء قائم على السلطة والثقة، لأنه رفض أن يستخدم بحارته حريتهم الفردية في الاستماع، لقد استبعد أيضاً إمكانية أن يعصوا أمره ولا يسدوا آذانهم. وما إن بدأ عوليس يسمع غناء الحوريات الجليل حتى شعر برغبة لا تقاوم في الذهاب نحوهن، ولكن رفاقه منعوه. أما الحوريات اللواتي أثار غضبهن أن يستمع إليهن أحد دون أن ينجحن في إغرائه فإنهن رمين أنفسهن على الأمواج وهلكن. إن ركوب المخاطر يتمثل في التعرض لها بطريقة مبدعة، مع وعي بطبيعة المخاطر التي نتعرض لها؛ إن مبدأ الاحتراس يسمح هنا بالمخاطرة وبملامسة الشر عن قرب. إن عوليس، وهو يرضى بحزم مواجهة الشر، ونعني هنا الاستماع إليه، محيطاً نفسه بكل وسائل الأمان ومقيداً لها، يجرده من سلاحه الفتاك ويمحوه. إن الحدث الذي يحول المخاطر إلى نجاة قد تحقق في الكلام. ولكنه كان الوحيد الذي استمع إلى الحوريات، ولم يعرض رجاله لخطر الاستماع إلى غنائهن.

كان ينبغي على عوليس مباشرة بعد هذه المغامرة أن يواجه مخاطر مرعبة أخرى، كان عليه أن يواجه في مضيق ميسين Messin واحدة أو أخرى من صخرتين بحريتين، عليهما امرأتان مرعبتان. الأولى، خاريبد Charybde، تبتلع بعنف لا يمكن التغلب عليه ماء البحر والسفن التي تجري فيه؛ والثانية سكيللا Scylla تمسك بكلابها

المتوحشة الستة التي تشكل القسم الأسفل من جسدها بحارة السفن التي تمر أمامها. إن عوليس، وهو يقرر اجتياز هذا الممر الخطير – ولكن هل كان له الخيار حقاً في اجتيازه أم عدم اجتيازه؟ ألم يكن ينبغي عليه على أي حال أن يتابع طريقه بأقصى ما يمكن من سرعة وفاعلية؟ – مدفوعاً للتضحية بأفراد، وإذنْ بحريات فردية. لقد زرع مشهد موتهم الرعب في نفسه، ولكنه أنقذ سفينته والقسم الأكبر من طاقمه:

جذبت سكيللا اللعينة رفاقي الذين كانوا يرتعشون، وراحت تبتلعهم على باب كهفها، في حين أنهم كانوا يصرخون، وكلهم يمد ذراعيه نحوي مستنجداً مستغيثاً في قنوط ويأس! أبداً ما وقعت عيناي في جميع رحلاتي البحرية على منظر أبعث للأسى، وأمض للنفس وأجرح للفؤاد من ذلك المنظر الرهيب[١٤].

لا يقاس الشر بالمقياس البشري، ولكن الإنسان يجد نفسه بطريقة مبهمة متورط بانتشاره، كما هو الحال في كل حدث. لم يكن عوليس قبطان السفينة، المتورط ورطة عجيبة لينكر مسؤوليته، ففي إقامته في العالم الآخر انتقده بحارته انتقاداً مراً، وأخذوا عليه بحرقة أنه ضحى بهم، ولكنهم لم يأخذوا عليه في حال من الأحوال التهور، ولا انعدام الكفاءة. لم يكن عوليس ليعرض ألبتة رفاقه للخطر من أجل أن يحمي نفسه فقط.

إن عوليس، الذي عانى من الشر، الذي هو ذهول وعنف في آن معاً، يستطيع في معاناته أن يتخلى عن بحارته ويتخلى عنه بحارته. إنه لم يكفَّ ألبتة عن تحليل الوضع، وتحديد اختيارات آخذاً في الحسبان ما فيها من أرباح وخسائر. إنه لم ينصرف ألبتة عن تبصر المخاطر؛ لذلك لم يهلك، واستطاع في نهاية قصته العودة إلى مسقط رأسه، مدينة إيثاك Ithaque. ولم تكن القضية لديه أن يحب أو لا يحب المخاطر، إن ما يريده هو العيش/النجاة والتقدم. كان يتابع على الدوام طريقه متخذاً من الإخفاق رأس ماله؛

---

(١٤) الأوديسة، النشيد ١٢، ٢٥٠ – ٢٥٩: ترجمة لوكنت دو ليزل. أوقارن بالترجمة العربية، دريني خشبة، الأوديسة، دار الكتب الأهلية، سيدان الأويرا، مطبعة الرسالة، القاهرة، ١٩٤٥م، ص١٧٨ – ١٧٩. المترجم.
Odyssée, XII, 250 - 259: traduction de Leconte de Lisle.

كان يعلم أن ما يحدث له هو جانب من حياة الجماعة، جاعلاً منها أكثر أماناً وأكثر حيوية. ولكن رفاق عوليس لم يكونوا مثله يمتلكون القدرة نفسها على تبصر المخاطر. لذلك لما وصلوا جائعين إلى جزيرة ترعى فيها قطعان من العجول البيضاء، تملكها ربة الشمس رفضوا الاستماع إلى رأي عوليس الذي كان يحضهم على عدم المساس بالعجول، واتهموه بأنه يناور بالخوف. إنهم لم يميزوا بين المخاطر الداهمة والمخاطر المبتذلة. واتهموا عوليس بأنه يخادعهم ويستعبدهم. وحقيقة الأمر أنهم هم الذين استبد بهم الخوف من الموت جوعاً، ويبدا أن تلك الشهوة هي التي تستعبدهم. حينئذٍ قتلوا بعض تلك العجول وأكلوها، معتقدين أنهم بذلك يحفظون أنفسهم، مما أثار غضب ربة الشمس، وعَرَّضَهُم لانتقام كبير الآلهة زيوس. وعندما استأنفت السفينة مسيرتها أرسل على البحارة الصواعق فصعقتهم فهلكوا جميعاً إلا عوليس الذي لم يشارك في تلك المأدبة التي انتهكت المحرمات. لم يفهم البحارة أن شدة عوليس كانت مرتبطة بجودة أدائه. ولأنهم لم يستطيعوا التبصر في المخاطر فإن المخاطر أهلكتهم. لقد أخفق البطل بلا شك في خلق ظروف مسؤولية جماعية، وشرعة أخلاقية عالية، ولكنه أيضاً احترم حرية رفاقه، ولم يتخيل أي شيء يمكن أن يحول بينهم وبين ممارسة حريتهم.

٥- شأن عوليس: المصادفات والمخاطر لصاحب المبادرات المعاصر

5. Comme Ulysse: les hazards et les risques de l'entrepreneur moderne

إن للمخاطر التي تأخذ في الحسبان الخوف، والأوضاع العارضة، التي هي كما رأينا للتو، موضوع لاستعراض فردي أو جماعي، لرضا فردي أو جماعي، هدفاً إيجابياً. ونحن في قولنا هذا قريبون كل القرب من التعريف الذي ابتدعه كوندياك[١٥] Condillac وورد في معجم اللغة الفلسفية لبول فولكيي Paul Foulquié :

---

(١٥) إيتين بونوت دي كوندياك Étienne Bonnot de Condillac: فيلسوف فرنسي مشهور من فلاسفة عصر التنوير. ولد في عام ١٧١٥م في غرونوبل، وتوفي عام ١٧٨٠م. المترجم.

المخاطر هي مواجهة التعرض للشر، على أمل أن نحصل على الخير إذا استطعنا الإفلات منه[١٦].

هل أسهم المقدام عوليس عبر مغامرته في وضع تعريف "للمقاول"؟ وقد نشأ في القرن الثامن عشر الميلادي، في فرنسا وإنجلترا، في أوساط المديرين والمهندسين نقاش حاد حول المصادفات والمخاطر المرتبطة "بالشركة" و"المقاول"، الذي يسمى أيضاً "رجل المشروع". لنذكّر هنا ببعض مظاهر ذلك النقاش النظري الذي يمكن للتحليل الذي فرغنا عنه للتو بخصوص بطلنا الإغريقي أن يلقي الضوء عليه.

تستمد كلمة "شركة entreprise" أصلها من كلمة emprise في الفرنسية القديمة، ثم من كلمة enterprise التي تشير إلى الفعل بوصفه التزاماً بمشروع يفترض ركوب المخاطر. وتنطبق الكلمة في المقام الأول على مجالات مختلفة. فا"لمقاول" هو الذي يقود مشروعاً عسكرياً، وتنطبق على من يستطيع عبر مشاريعه تفكيك الروابط التي تؤسس مملكة، وتنطبق على من يخالف النظام التسلسلي لهيئات الدولة [١٢٢] ويخرب قواعدها، وعلى من يلتزم وفقاً لعقود مسبقة بإنجاز مشروع اقتصادي متحملاً تبعات المضاربة والزمن. ويلتقي هذا الاستخدام الأخير للكلمة مع ممارسات تطورت في القرن السادس عشر. ولكن المتصور الاقتصادي لمصطلح "المقاول" كان وليد القرن الثامن عشر الميلادي، عندما ارتبط بالتفكر في طبيعة المخاطر. وقد حرص مصرفي بارع من ذلك العصر هو ريشار كانتيون Richard Cantillon على تعريف المقاول في كتابه **محاولة في طبيعة التجارة على وجه العموم**[١٧]، نشر كتابه في لندن عام ١٧٥٥م، وجاء فيه:

إن انتقال الأغذية والبضائع ومقايضتها يتم في أوروبا، شأنه شأن إنتاجها، عبر مقاولين وبالمصادفة.

---

(١٦) بول فولكي وريمون سان – جان، معجم اللغة الفلسفية، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية، ١٩٩٢م.
Paul Foulquié et Raymond Saint - Jean, Dictionnaire de la langue philosophique, Paris, PUF, 1992.

(١٧) *Essais sur la nature du commerce en générale, Londres, 1755.*

ثم يصف في كتابه ما يسهم في جعل فعل كل مقاول سلوكاً "غير مضمون"، يتصرف فيه المقاول "حسب أفكاره"، و"دون أن يستطيع التنبؤ"، ويتصور وينفذ فيه مشروعات ينفذها وسط تقلبات الأحداث. إن عدم اليقين – الذي يعني المخاطر أيضاً – في مردود الشركة يعود إلى حقيقة أن ذلك المردود يرتبط بأشكال استهلاك "ملاك الأراضي" الذين يعدون الأعضاء الوحيدين في المجتمع، الذين هم "بطبيعتهم مستقلون". أما المقاول فإنه من جانبه قادر على السيطرة على تبعيته الطبيعية عبر قناعته لأنه حينئذ يتخلى عن وسائل العيش التي توفرها له الرهونات، وعبْر صناعته التي تسمح له بتحمل مخاطر عدم اليقين. حينئذٍ يحصل على استقلال نسبي، مرتبط بقدرته على التقويم والمبادرة.

وفي عام ١٧٨٧م نشر جيريمي بنتهام Jeremy Bentham في لندن كتابه **الدفاع عن الربا**[١٨] الذي دافع فيه معارضاً رأي آدم سميث Adam Smith عن الأهمية الاقتصادية للمقاول الذي يركب المخاطر المرتبطة بالابتكار والتجديد، وتسهم بذلك في شق مسالك جديدة للتقدم التقني، سامحاً عبر إخفاقاته لأولئك الذين يأتون بعده بتجنب أخطائه. إنه يقابل بين الشركة التي يكون فيها الالتزام محفزاً بمدى التعلق بالأمير وبالإخلاص له. إن في هذا صيغتين مختلفتين لتحقيق المصلحة العامة.

وبعد حين، جاء دور الأمريكي فرانك هـ. نايت Frank H. Knight لإيجاد نظرية لرجل المقاولات ولمردود الشركة، وهي نظرية كان فيها مفهوما الاحتمالية وعدم اليقين مفهومين مركزيين، وذلك في كتابه **المخاطر وعدم اليقين والربح**[١٩] الذي نشر في بوسطن عام ١٩٢١م. ويميز فيه بين **التأمين على المخاطر وبين التأمين على عدم اليقين**. إن عدم اليقين الذي يتدخل فيه الحكم الحر – الشركة الحرة – لرجل المقاولة يخلق

---

(١٨) *Defince of Usury, Londres, 1787*.

(١٩) *Risk, Uncertainty and Profit, Boston, 1921*.

أوضاعاً، مثل تلك التي عاشها عيشة مثالية البطل الإغريقي عوليس، وهي أوضاع تستعصي على العلم وعلى الحساب لأنها أوضاع غير قابلة للتكرار. ثم إن شومبتير Schumpeter سيتحدث عن إرادة التجديد عند رجل المقاولات المتمرد، أما كينيس Keynes فسيعرض "للغرائز الحيوانية" التي تحفز الدافع لدى رجل المقاولات.

وفي عهد قريب، عام ١٩٨٢م قارن جورج شاكل George Shackle، مقارنة مقنعة كل الإقناع، بين رجل المقاولات المنشئ، "رجل المشروع"، رجل المخاطر المبدع، وبين فنان عبقري أو عالم رياضيات عظيم[٢٠]. لأن اختيار الفعل الخطر يصمد في وجه عقلانية الخطاب الاقتصادي أو يزيد منها.

٦– التبصر في المخاطر: "كينونتي تكتسب قيمة أكثر"، ضد الموت أو التهيؤ لما سيأتي؟

6. Penser le risque: "mon être acquiert plus de valeur", contre la mort ou en disponibilité à ce qui vient?

إنه لمن المهم التسجيل أن المصطلح اللاتيني angor يدل في آن واحد على "الخوف" و"الإحساس بالجور"، أي "القلق" و"الشعور باختناق"، و"المرور الضيق"، بمعنى "الوضع الحرج"، "الخطر". ويعلمنا فرويد Freud أن الموت ليس مجرد غياب؛ يمكنه أن يحاصر أقوالنا و[١٢٣] أفعالنا، إنه يصبح عندما يحمل الاسم اليوناني ثاناتوس thanatos مبدأ فاعلاً حقيقياً تغري شهوانيته المضادة الإنسان دون أن يعي ذلك. يمكن أن نترك العنان لأنفسنا ليعترينا الذهول لهذا المبدأ، ونسلم أنفسنا لدوار السلبية هذا، لكوارثية سلبية تعبر عصرنا. هنا أيضاً، تساعدنا الأسطورة الإغريقية على التفكير. تتمثل قصة بيرسيوس Persée وميدوسا Méduse في أن يذهب البطل إلى آخر العالم المعروف حيث لا تخليص البشرية من أحد الوحوش. كان مكان الوحش بعيداً، ولكن

(٢٠) جورج ليونكس شارمان شاكل، رجل المبادرات، نيويورك، بريغر، ١٩٨٢م.
George Lennox Sharman Shackle, The Entrepreneur, New York, Praeger, 1982.

وجوده محققاً، وكان يُحَوِّل من ينظر إليه إلى حجر. ولكن بيرسيوس لم يستسلم لإغراء مبدأ اتخاذ الاحتياطات التي تقضي على إمكانية ركوب المخاطر. فلكي يتجنب النظر المرعب والمميت لميدوسا استخدم درعه المصقول كالمرآة فلم يعد بذلك يخشى نظر الوحش؛ وقد قتله في أثناء نومه. وبذلك نجد بيرسيوس يرفض الموت والكارثة، ويرفض الاستسلام للعرض وللرعب الذي افترض وجوده ضمنياً؛ إنه يسترد كل شيء عبر جهد تفكيره؛ ويكمن الخلاص في ذلك النشاط التفكيري. إن القبول بالكارثة يختفي في طياته خياراً لصالح الموت؛ نترك أنفسنا تسيطر علينا نظرية التراجع المحتوم، نوحد العالم عبر المسار الكارثي وفيه؛ نتظاهر بالاختفاء أمام ما ينبثق عن الذات، الموت[٢١]. لم يستسلم بيرسيوس ولا عوليس إلى دوار الموت، ولا لإرهاب الوحوش. وإن أنتيغون Antigone التي اختارت أن تدفن أخيها معارضة القانون الذي سنه ملك طيبة Thèbes لكي تحرر جسده من الموت كانت تتبصر في اتهامها الخاص، وبموتها الخاص. وليس المقصود بالطبع في حالتها السلبية؛ إنها رفضت أن تصبح مادة لإجراء يزيل عنها السمة الإنسانية ويؤسس لبداية أخرى.

وبعد عدة قرون أورد أحد فرسان القرون الوسطى التسويغ التالي ليضفي صفة شرعية على مغامرته أو سلطته (التي أصبحت في وقت لاحق شركة)[٢٢]: كينونتي ستكتسب قيمة أفضل.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الموت في الغرب، وفي الحضارات المرتبطة بالأديان التوحيدية الثلاثة على وجه العموم وفي الفكر الإغريقي هو الخطر بامتياز، هو الكارثة؛ فالمخاطر بالنسبة إلى الإنسان مرتبطة بحقيقة أن يكون للمرء جسد رقيق،

---

(٢١) في هذا السياق، إن موقف الفيلسوف جان بيير دوبوي Jean-Pierre Dupuy في مقاله "الفجوات في فلسفة المعقول"، مجلة الفلسفة الاقتصادية، رقم ٧، ٢٠٠٣م/ ١ تم تأويله بوصفه تعبيراً عن نبوءة سلبية، تستسلم للكارثة.

(٢٢) Empise التي تعني: سلطة، تأثير، نفوذ، تحولت حسب المؤلفة إلى entreprise التي تعني شركة. [المترجم]

والأنا محددة عبر حتمية المحافظة عليها. في حين أن الموت لا يشكل في حضارات أخرى كالحضارة الصينية على سبيل المثال النهاية المأساوية للحياة، إنه ليس الحد الذي يكون رمي المرء فيما وراءه أمراً مرعباً، إنه الأمر الذي يصبح موازياً للحياة. يندرج الموت في الحركة التي لا نهاية لها للتحول، وللتنفس، الحركة التي هي حركة العالم؛ والجسد هو نفس مكثف. وقد كانت القضية بالنسبة إلى الرجل الذي ألقى بنفسه في تيار الماء الجارف في القصة التي سبق الحديث عنها للحكيم زهوانغزي تعني الامتثال لطاو (منطق) الماء، وأن يترك التيار يستنشقه ثم يزفره، دون أن يستنفد طاقته الخاصة في مواجهة طاقة العالم. وقد تحدث الفيلسوف هيدغر Heidegger عن "بنية القلق"، التي تجعلنا في الغرب على الدوام موسومين بتقديم الذات إلى الأمام، عبر الاستباق؛ فالإبلاغ عن المخالفات على سبيل المثال يسهم في ضبط الإجراء الاستباقي لهذا "القلق"؛ لن نرضى بأن لا يعاقب القانون الصمت الذي يقال إنه أحد الأسباب، إن لم يكن السبب الرئيس، لخراب قادم. في حين أن هناك في الصين استعداداً جوهرياً لما سيأتي، للتعاقب، وهو استعداد لا ينبغي أن نخلط بينه وبين الإحساس الغربي بالعجز. إذن، لا يمكن أن يكون للخطر المعنى نفسه، ولا يمكن أن يكون مخوفاً منه بالطريقة نفسها في الغرب وفي الشرق، لأن الأجساد تتحدث حديثاً مختلفاً عندما تكون الأقوال غير متشابهة، وطريقتها في سكنى العالم تختلف أيضاً. وفي مقياس أن الكوكب يتعولم فإننا بالتأكيد ننتمي إلى الأرض من أقصى الغرب إلى إلى أدناه، ولكن ذلك يعني أنه ينبغي أن نكون منتبهين إلى حقيقة أن أي كونية تتعثر بالغيرية الحيوية.[١٢٤]

٧– الفضولية الضرورية، مبدأ الفضولية

7. La nécessaire curiosité, le principe de curiosité

ألا يمكن تحويل مبدأ **الاحتياط**، الذي بات متضمناً في دستور الدولة الفرنسي، شأنه شأن إعلان حقوق الإنسان والمواطنة، إلى آلة لقتل التجديد؟ وهو مبدأ وضع بادئ ذي بدء للاحتراس من التغيرات المناخية الناجمة عن تعديات الإنسان. وإن أكثرية

البشر اليوم ترفض الأجسام المعدلة وراثياً، وترفض الاستنساخ، والتجديد، وربما التقدم. لذلك شهد مشروع القانون حول الأجسام المعدلة وراثياً OMG نقاشاً صاخباً خلال الستة الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٨م قبل أن يفضي ذلك النقاش إلى إقرار القانون، في الخامس والعشرين من يونيو"حزيران" ٢٠٠٨م، القانون الذي أقر ترتيباً يحدد المسؤوليات وواجبات الإعلام. إن وكالات التسجيل التي تؤدي منذ بعض السنوات دوراً في تقديم تقييم للخطر يتجسد عبر قيمة، وعبر مونتاج مالي في سياق اقتصادي ونظامي محدد لا تطمح إلى استباق الظواهر الاقتصادية. بل إن الاستباق الاقتصادي يبقى مجال مسؤولية المبادر الذي يساعده في اتخاذ قراراته عدد من أصحاب المهن المختلفة ؛ والحال أن عنف العاصفة التي ضربت في هذه السنة نفسها، ٢٠٠٨م الالتمان، الأزمة التي تسمى أزمة الرهن العقاري الأمريكي حرض بعض المستثمرين لفضح ذنب تلك الوكالات.

يعلم الاقتصاديون أن تكييف المخاطر كما قاربته المناهج الإحصائية التقليدية لا يمكن له أن يأخذ في الحسبان خطراً مستمراً، وغير مؤمن يسببه تطور غير مناسب للمنظور الاقتصادي. هل يمكننا تخيل أن فلاسفة عصر الأضواء، ديدرو Diderot والعلماء الموسوعيين الآخرين يعزفون عن المعرفة و "المشروع" بسبب مبدأ "الاحتياط"، فباستور Pasteur وماري كوري Marie Curie يخفيان اكتشافاتهما خوفاً من الآثار الجانبية أو من المنظور غير المتوقع وغير المناسب؟

ينبغي بالبداهة أن نتساءل عن أسباب هذا الحذر وهذا الخوف من المعرفة، ومن المستقبل على وجه العموم، وذلك واضح كل الوضوح في أوروبا القارية. يبدو الفرد في ديمقراطياتنا متعصباً، عاجزاً عن ركوب المخاطر، أو القبول بإصلاح لمصلحة الجماعة. ليس هناك حرية للمبادرة بموارده الربحية دون تحمل مخاطرها ؛ وليس هناك ألبتة إخفاق نهائي. لهذا يبدو أنه من المفيد كل الفائدة أن نرد الاعتبار للفضول الذي تصفه حكمة شعبية مزعومة بأنه "عيب شنيع"، وهو في واقع الأمر فضيلة أساسية

للتطور وللتواصل بين المجتمعات. أليس الفضول لمعرفة العالم ولمعرفة الآخر، بوصفه جهداً لتجاوز الفردية، أسَّ التجديد، والنمو الشخصي والمجتمعي، وبناء المستقبل؟ لهذا تبدو مراكز التحليل التنبؤيَّة المرتبطة بإدارة الـ "صناديق التحوط"[٢٣] التي هي قيد التطور في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي اليابان وفي فرنسا عام ٢٠٠٨م، مهمة من وجهة النظر هذه.

إن الفائدة الأساسية للأساطير المذكورة سابقاً في هذا السياق هي التذكير بأن الكائن الناطق، وهو يتساءل ويجيب، الكائن الفضولي مثل عوليس، النموذج المثالي، سيد الفضول والمخاطر، لا يعدم ألبتة أن تكون في جعبته مبادرة ممكنة. إنه لمن المناسب إيجاد التوازن بين التحوط والابتكار. حتى لو كانت المخاطر هي العنصر الذي لا ننى نتحرك ونتصرف في نطاقه منذ "السقوط" الأول، وحتى لو كانت الخرب، شأنها شأن السوق، وشأن الأعمال الفكرية العظيمة قد ارتقت إلى سجل الأحداث العالمية، وحتى لو أن حدود المخاطر لا تني تتنقل، فإن عدداً من من النقاط البارزة تستحق أن نقف عندها: إن الخطر الداهم، الوجودي للموت لا يمكن أن يوضع في المستوى نفسه مع هذه المخاطر أو تلك التي هي أكثر تحديداً وأكثر راهنية؛ إن تعريض بعض البشر للمخاطر لا يصح أن يصبح مورداً للآخرين؛ إن ثروة العلاقات بين البشر تترافق مع استقلال البشر الحقيقي. يقول الشاعر هولدرلين Hölderlin: "هناك حيث يكون الهلاك

---

(٢٣) Hedge fund= صناديق التحوط: هو وعاء استثماري يضم عددا من المستثمرين لا يزيد غالباً عن نحو خمسمائة مستثمر قيمة الاشتراك في الصندوق ضخمة إذ تتراوح عادة ما بين نصف مليون ومليون دولار كحد أدنى. فلسفة الصندوق تقوم على ضمان تحقيق ربح للمستثمر فيه بصرف النظر عما قد يحدث في أسواق العالم من تقلبات. وليس هناك أي قيود على مدير الصندوق من الجهات المنظمة وهذه من النقاط القوية التي تؤخذ عليها. ويبلغ عدد هذه الصناديق التي ظهرت فكرتها في وول ستريت في أربعينيات القرن الماضي ثمانية آلاف صندوق تجوب شتى أسواق العالم. ولكن لماذا تحمل هذه الصناديق هذا الاسم؟ السبب الرئيسي لهذا هو أنها تتبنى إستراتيجية استثمارية تهدف إلى التحوط أو الحيطة من مخاطر التعرض لأي خسائر. [المترجم]

ينمو أيضاً ما ينقذ". هل ينبغي الخوف من التقدم؟ كيف نطوع المستقبل؟ ولنستمع في الختام أيضاً إلى حنة أرنت: [١٢٥]

إنه لموقف واقعي أن ينتظر الإنسان ما قد لا يكون متوقعاً أو متنبأ به، وتوقع حدوث المعجزات... فضلاً عن أنه كلما مالت الكفة بشدة لصالح النكبات بدا الأمر الواقع إرادياً أكثر إعجازاً؛ إنها النكبة وليس الخلاص هو الذي ينبغي أن يبدو أمراً محتوماً... إن الآليات التاريخية تخلقها وتقطعها على الدوام المبادرة البشرية، وكما تقطعها أيضاً طبيعة الخلق التي اكتسبها الإنسان في إطار أنه مخلوق فاعل[٢٤].

تلك هي واحدة من القضايا التي تطرحها علينا الأسطورة فيما وراء المكان والزمان. والإنسان هو فعلاً الصانع المسؤول عن تاريخه الخاص، إنه هو الفضولي والمسؤول، الذي يبقى "قيمة القيم". لا ينبغي الخوف من البدايات، وينبغي إعادة قراءة الأساطير بلا كلل ولا ملل. ألا تتمثل غاية الفلسفة حسب سيمون ڤيّ، وبالتالي غاية الأساطير، في "قول أشياء أبدية لكي تكون واثقة من أنها ستكون أشياء راهنة"[٢٥]؟

---

(٢٤) حنة أرنت، أزمة الثقافة، م. س، "ما الحرية؟"، ص٢٢١.

(٢٥) بيرتران سان سيرنان، الفعل السياسي حسب سيمون ڤيّ، باريس، منشورات سيرف، ١٩٨٨م.
Cf. Bertrand Saint - Sernin, L'action politique selon Simone Weil, Paris, Ed. Du Cerf, 1988.